حروف حرّة

مجلّة شهرية تصدر عن جمعية تونس الفتاة

العدد الثاني، أفريل 2021

التخطيط للمستقبل المهني يبدأ من الجامعة

تنظيم القاعدة بين غياب الظواهري وحرب خلافته

من الهولوكوست اليهودي إلى الهولوكوست الفلسطيني

"تاريخ التكفير في تونس III"...جدل الإيمان والعلم

الجنس في الأساطير الرافدية القديمة

المقاومة القبلية لانتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية

"قيلولات الجد"... في كسر الصمت حول أكبر المحرّمات

جمعية تونس الفتاة

في هذا العدد:

التخطيط للمستقبل المهني يبدأ من الجامعة ص. 3
خلود الخمّاسي

تنظيم القاعدة بين غياب الظواهري وحرب خلافته ص. 4-5
أنيس عكروتي

من الهولوكوست اليهودي إلى الهولوكوست الفلسطيني ص. 6-7
خليل العربي

الجنس في الأساطير الرافدية القديمة ص. 8-9
فهمي رمضاني

المقاومة القبلية لانتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية ص. 10
هشام الزعبي

"قيلولات الجدّ"... في كسر الصمت حول أكبر المحرّمات ص. 11
حمزة عمر

"تاريخ التكفير في تونس III"... جدل الإيمان والعلم ص. 12-13
حمزة عمر

حروف حرّة

مجلّة شهرية تصدر عن
جمعية تونس الفتاة

تأسسّت في مارس 2021

رئيس التحرير
حمزة عمر

فريق التحرير
أنيس عكروتي
خولة القاسمي
فهمي رمضاني
هشام الزعبي

التصميم
حمزة عمر

مصدر صورة الغلاف
وكالة الأناضول للأنباء

للتواصل معنا
redaction@tounesaf.org

التخطيط للمستقبل المهني يبدأ من الجامعة

تقول الحكمة: إذا فشلت في التخطيط، فقد خططت لفشلك. وروح المقولة أنّ سر النجاح يكمن في التحضير المسبق للمشاريع مهما صغُر حجمها وحتى لو كانت فردية. تشمل هذه القاعدة الطلبة الذين هم بصدد الدراسة وتفصلهم سنوات عن سوق الشغل.

عادة ما يصرف الطلبة جزءا كبيرا من زمن السنوات الدراسية الجامعية في التحصيل العلمي والمشاركة في النشاطات الجامعية أو المدنية ولعل أغلبهم ينكبون على التحضير للبحث عن شغل خلال سنة التخرج وربما أيضا انتظروا حتى بعد التخرج للشروع في البحث.

التحضير المبكر للتخرج والحصول على شغل يمكن أن يسهّل المهمة ويقصّر وقت البحث والاستقرار في وظيفة. فيما يلي بعض النصائح التي من شأنها أن توجّه الشّباب الجامعيّ نحو التخطيط المنهجي للالتحاق بسوق الشّغل (أو إنشاء مشاريع خاصّة).

- إبدأ في التخطيط للعمل منذ السداسيّ الثاني في الجامعة. خلال السداسيّ الأوّل، عليك التّعرف على تفاصيل اختصاصك، مثلا أهم الأساتذة في جامعتك وحتى جامعات أخرى، منشورات الأساتذة الجامعية وآفاق المتخرجين السابقين. خلال السّداسيّ الثاني، حدّد أهم الروّاد في المجال الذي تريد أن تتخصص فيه وحاول أن تفهم أهم نقاط قوّتهم الذاتيّة والأكاديميّة. حدّد كذلك أهم الإنجازات أو المشاريع في اختصاصك التي من الممكن أن تنخرط فيها كمتربّص أو موظف أو تستلهم منها أفكار مشاريع أو برامج لتنجزها.

- حاول في السنة الثانية من التكوين الجامعي أن تضيق اهتماماتك تحضيرا للتخصص والتميز فيه. يذهب الكثيرون إلى تعدد الاختصاصات ولكن من الواقعيّ القول أنّ التخصص يساعدك على النجاح أكثر علميا وتحقيق مداخيل أعلى ومن الممكن بساعات عمل أقل. من الأجدر أيضا العمل على تقييم المهارات الذاتية قصد العمل على إثرائها أو تدارك النقائص. إعمل أيضا على تحديد الشركات التي من الممكن أن تشتغل بها أو المشاريع التي من الممكن أن تنجزها.

- خلال السنة الثالثة عليك بالشروع في طلب الشغل أو البدء في المشاريع. يمكن أن تلتحق بمؤسسة كمتربّص وتواصل العمل كموظف معهم عند التخرج ويمكنك البدء بتحضير دراسة مشروع وتبدأ فيه قبيل التخرج أو مباشرة بعده.

من المهم في سنة التخرج أن تكون ملما بأهم حيثيات اختصاصك وهذا ما يعبر عنه بالجانب المعرفي أو التقني. يجب أيضا أن تكون متمكنا من لغة اختصاصك ولغة أو لغات أخرى من شأنها تسهيل عملك. مثلا لو كنت متخصصا في اللغة العربية فيجب أن تكون ملما بها كاختصاص معرفي ولغة تواصل أي أن تكون قادرا على استعمالها بسلاسة. وإذا نويت الالتحاق بمدرسة أجنبية، فمن المحبذ أن تكون ملما باللغة الفرنسية حتى تستعملها إداريا في تحرير تقارير الأعداد للتلاميذ مثلا. ويجب كذلك أن تكون قادرا على التواصل كتابيا وشفاهيا بشكل محترف: أن يكون عندك قدر من الحضور فذلك يساعك على الإقناع والتعاون مع مهنيين آخرين.

عموما عند إنهاء الجامعة، يجب أن يكون الخرّيج متمكنا من أبجديات اختصاصه ولغة تواصل الاختصاص ومن المحبذ لغة أخرى على الأقل وقادرا على التواصل بشكل سلس ولبق. كل هذه النقاط هي مهارات يمكن تعلمها بالممارسة والتمرن المستمر ومواجهة وضعيات تواصلية حقيقية.

لو أمكن لكل طالب تخصيص ساعتين أسبوعيا خلال سنوات الدراسة الجامعية للعمل على التحضير لسوق الشغل فالنتيجة ستكون مبهرة وتضمن النجاح على أوجه عدة. لكن تجدر الإشارة إلى أن الحصول على عمل هو خطوة أولى في رحلة جد طويلة تمتد على سنوات عديدة. ليكون الفرد قادرا على مواجهة المتغيرات في محيط العمل يجب أن يكون قادرا على مواصلة التعلم، فحسب براين ترايسي، كل ما يتعلمه الفرد يبلى بعد سنتين ونصف.

بقلم: **خلود الخمّاسي**
مدرّسة لغة أنجليزية
ومؤسسة دار بركة للنشر
الالكتروني

khouloud@tounesaf.org

> ”
>
> ***لو أمكن لكل طالب تخصيص ساعتين أسبوعيا خلال سنوات الدراسة الجامعية للعمل على التحضير لسوق الشغل فالنتيجة ستكون مبهرة***
>
> “

تنظيم القاعدة بين غياب الظواهري وحرب خلافته

بقلم: أنيس عكروتي
عضو مؤسّس لجمعية تونس الفتاة
مهندس بيولوجي
باحث في شؤون الجماعات الجهادية
anis@tounesaf.org

> ما جاء على لسان الظواهري لا يتجاوز الأخبار العامّة في وصف مأساة الروهينجا ولا يبدو إطلاقا أنّ تاريخ تصوير الشريط كان منذ فترة قريبة

منذ شهر نوفمبر الماضي، تواترت أنباء غير مؤكّدة عن وفاة أيمن الظواهري. عزّزت "عزلة" هذه الشكوك، فآخر ظهور موثّق له يعود إلى شهر فيفري من سنة 2020 وذلك في تقرير الأمم المتّحدة عن الوضع في أفغانستان والذي نُشر في شهر ماي من نفس العام. ذُكر في التقرير أنّ " زعيم القاعدة التقى بأعضاء من شبكة حقّاني في فيفري 2020 وذلك بشأن اتفاق السلام الممضى بين الولايات المتحدة الأمريكية وحركة طالبان الأفغانيّة.

بعد أشهر بثّت مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي، الذراع الإعلامي المركزي للقاعدة، فيديو تحت عنوان "صفقة القرن". في هذا الفيديو، لم يذكر الظواهري عبارة صفقة القرن ولو لمرّة واحدة وتحدّث عن صراع محتدّ بين الصليبيين والمسلمين- إضافة إلى الإشارة لمفاهيم فقهية عن الجهاد.

لم يتفاعل أنصار القاعدة حينها بشكل إيجابي مع الإصدار "الجديد" (والذي يطرح تساؤلا إن كان جديدا بالفعل) وبدا التسويق الإعلامي للخطاب باهتا ممّا يوحي بخيبة أمل لدى خلايا التنظيم ومساندية. منذ ذاك التاريخ والقاعديّون في حيرة كبيرة من مصير زعيم التنظيم إلى أن أتت " البشرى" أوائل شهر مارس من هذا العام. كان من المتوقّع أن يصدر فيديو جديد يؤكّد بشكل قطعي بقاء الظواهري على قيد الحياة، ولكنّ الإصدار الذي كان تحت عنوان "الروهينجا جرح الأمّة كلّها" دام قرابة 22 دقيقة لم يتحدّث فيها الظواهري إلّا 3 دقائق و45 ثانية. المفاجأة الأبرز تمثّلت في عدم ظهور خليفة بن لادن بوجهه. إضافة إلى ذلك، فإنّه لم يكن المتحدّث الرئيسي في الشريط الّذي بثّته مؤسسة السحاب وهي أعرق شبكة إعلاميّة لتنظيم القاعدة ولكنّها أضحت منذ مدّة تناهز العقد، مجرّد واجهة دعائية للظواهري، يُلجأ إليها عند احتداد الأزمات والخلافات الداخليّة.

قدّم راو مجهول الهوية موضوع الشريط بالحديث عن المجازر المقترفة بحقّ أقليّة الروهينجا بميانمار وصمت المجتمع الدولي عن هذه الانتهاكات. الفيديو الّذي اشتُغِل عليه كثيرا في المونتاج، قدّم الظواهري في موضع ثانوي لم نعهده في حضوره الإعلامي المتكرّر منذ صعوده إلى أعلى هرم القاعدة إثر وفاة بن لادن منذ عشر سنوات.

من خلال قراءة محتوى الشريط وخاصّة المقاطع التي وردت بصوت الظواهري، نتبيّن أنّ ما جاء على لسانه لا يتجاوز الأخبار العامّة في وصف مأساة الروهينجا ولا يبدو إطلاقا أنّ تاريخ تصوير الشريط كان منذ فترة قريبة. حتّى أن زعيم التنظيم لم يشر إلى الانقلاب العسكري الذي حدث في ميانمار غرّة فيفري الماضي مشيرا إلى "حكومة ميانمار الديمقراطيّة" بل وتجاهل الانتخابات التي جرت بالبلد في 8 نوفمبر من العام الماضي.

تفصيل آخر يذكره الصحفي الفرنسي وسيم نصر المختصّ في شؤون الحركات الإسلاميّة وهو غياب عبارة "حفظه الله" تأكيدا على بقائه على قيد الحياة أو عبارة "رحمه الله" تأكيدا على وفاته مثل ما جرت به العادة خلال كلّ الإصدارات السابقة بما فيها الأشرطة التي ظهر فيها بن لادن.

بالعودة إلى المحتوى، على أهميّة الانتهاكات المرتكبة بحقّ الروهينجا، تجاهل الظواهري - أو لنقل شبح الظواهري- عدّة أزمات تكاد تعصف بفروع التنظيم كفرع القاعدة بالجزيرة العربية والّذي يواجه حاليا مشاكل ماليّة وانشقاقات بارزة وغموضا على مستوى القيادة، إضافة إلى آخر قلاع القاعدة بسوريا ممثّلا في تنظيم حرّاس الدين وهو الذي يتعرّض لحملة أمنيّة واسعة من هيئة تحرير الشام -جبهة النصرة سابقا- والتي فكّت ارتباطها بالقاعدة وتسعى للابتعاد عن "أجندة الجهاد العالمي"، فضلا عن المنافسة القويّة التي يلقاها التنظيم من غريمه التقليدي "تنظيم الدولة الإسلامية" على جبهات مهمّة مثل الساحل الإفريقي وجنوب شرق آسيا.

انطلاقا من هذه المعطيات، نرجّح ثلاث فرضيّات ممكنة:

- أوّلا، وهي الفرضية الأرجح في رأينا، وفاة الظواهري منذ صيف العام الماضي. وأمام حدّة الأزمات التي تواجه التنظيم وخاصّة الخلافات الداخليّة، خيّرت المجموعة القريبة من الظواهري في محور أفغانستان-باكستان-خراسان أن "تؤجل" وفاة الرجل الأوّل إلى حين حسم الخلافات.

- ثانيا، بقاء الظواهري على قيد الحياة مع احتجازه من قبل طالبان ومنعه من الظهور الإعلامي انسجاما مع رغبة الحركة في إبرام اتّفاق سلام شامل مع الحكومة الأفغانيّة الحالية.

- ثالثا، وهي الفرضيّة الأقلّ ترجيحا، بقاء الظواهري على قيد الحياة لكنّه يواجه أحد أمرين: إمّا أزمة صحيّة حادّة أو حصارا أمنيّا يمنعه من إيصال صوته.

وفي كلّ الحالات، تبدو مركزيّة القاعدة منذ سنوات في حالة شلل تامّ ومغتربة عن مشاغل وهواجس أعضائها وأنصارها وإن لم تكن وفاة الظواهري ماديّة فإنّها مؤكّدا معنويّة.

انقسمت ردود أنصار القاعدة إثر صدور الفيديو الأخير بين الردّ على أنصار الدولة الإسلامية الذين سخروا من عجز القاعدة عن إثبات حياة زعيمها وبالتالي الضحك على ذقون منتسبيه، وبين التقليل من شأن احتمال وفاة أو مقتل الظواهري واعتبار أنّ غياب أحد القيادات وإن كان بأهميّة رأس التنظيم لن يشكّل عائقا أمام مواصلة عمليّاتهم.

وهنا نستشفّ تفكير أعضاء القاعدة في مرحلة ما بعد الظواهري ومحاولة امتصاص الاهتزازات التي ستنجرّ عن وفاته خصوصا مع التنافس الشديد على منصب قائد أبرز التنظيمات الجهاديّة.

يبدو المصري محمّد صلاح الدين زيدان، الملقّب بسيف العدل، الأوفر حظّا لخلافة الظواهري، وهو مواليد 11 أفريل من سنة 1960 وقد عمل سابقا بالجيش المصري.

زيدان وعلى عكس الظواهري والمجموعة المصريّة المنشقّة عن جماعة الإخوان المسلمين والمنضمّة لاحقا لحركة الجهاد الإسلامي، التحق مباشرة بتنظيم القاعدة، وقد كان معارضا بارزا للاندماج بين مجموعتي بن لادن والظواهري، ولكنّها ظلّ وفيّا لقيادة التنظيم (أسامة بن لادن) ومحترما لخياراته رغم اختلافه معه في عدّة ملفّات.

لعب سيف العدل دورا بارزا في تحويل القاعدة من بعض المقاتلين السابقين في المعركة ضدّ السوفيات بأفغانستان أواخر سبعينات القرن الماضي إلى المنظمّة الجهاديّة الأخطر في العالم والأكثر تماسكا. وقد عُرف بحسّه الأمني وخبرته العسكرية وقراءته الجيّدة للأحداث حيث كلّفه بن لادن بالتنسيق مع إيران ونجح في إيجاد مأوى آمن لقيادات التنظيم وعائلاتهم ومنهم حمزة بن لادن، إضافة إلى ذلك استبق الهجوم الأمريكي على أفغانستان ونقل قيادات وازنة إلى طهران، علما وأنّه كان معارضا لهجمات 11 سبتمبر لما سينجرّ عن ذلك من ضرب لمعاقل القاعدة الرئيسية في أفغانستان وتأثير ذلك على نجاعة التنظيم واستمراريته.

كان سيف العدل على رأس مجموعة من عناصر القاعدة ممّن وافقت إيران على تدريبهم على استعمال المتفجرات وتفخيخ المباني في معسكرات تابعة لحزب الله في سهل البقاع بإشراف مباشر من عماد مغنيّة القيادي البارز في الحزب والذي تمّ اغتياله سنة2008 . آتت هذه التدريبات أكلها سنة 1998، حين قامت القاعدة بتفجير مبنيي السفارتين الأمريكيتين بنيروبي ودار السلام بتدبير وإشراف مباشر من سيف العدل.

رغم ثبوت إقامته بإيران منذ مدّة، تظلّ أنشطة سيف العدل الحالية غامضة، مع ذلك طُرح اسمه بقوّة في معركة خلافة الظواهري خصوصا وأنّه يتمتّع بسمعة طيّبة وثقة كبيرة لدى قيادات القاعدة.

تدلّ كلّ المؤشّرات على خطورة الرجل وقدرته على إعطاء نفس جديد للقاعدة لكن هل ستقبل المجموعة القريبة من الظواهري أن تبايعه، لا سيّما مع وجود أسماء أخرى مثل خالد البطرفي زعيم فرع التنظيم بالجزيرة العربية واليمن أساسا، والمغربي محمد أباتي صهر الظواهري والسعودي سلطان العارف؟

"
كان سيف العدل معارضا لهجمات 11 سبتمبر لما سينجرّ عن ذلك من ضرب لمعاقل القاعدة الرئيسية في أفغانستان وتأثير ذلك على نجاعة التنظيم واستمراريته.
"

من الهولوكوست اليهودي إلى الهولوكوست الفلسطيني

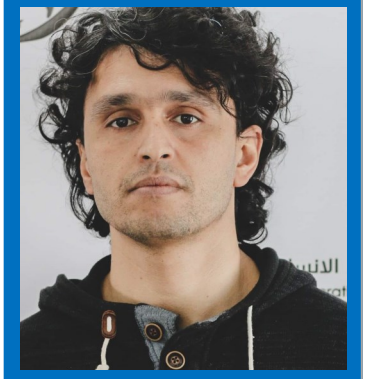

بقلم: **خليل العربي**
باحث دكتوراه في القانون العام والعلوم السياسية
khalilarbi2018@gmail.com

يحدثنا البعض عن الهولوكوست ضد اليهود كجريمة بين غربيين، أو بين أوروبيين لا صلة لنا بهم. كما يستعرضها البعض، بين عدم القدرة على دحضها وعداوة ضحاياها، كجريمة لا ذنب لنا فيها، حتى يبرر تجاهلها. وهو ما سمح بالتماهي مع النقاشات التي تنفيها تماما دون تكليف النفس ضرورة بناء حجج كافية لذلك.

سادت أيضا في مرحلة معينة نقاشات كبيرة حول عدد الضحايا الحقيقي، مع محاولات أخرى للحديث عن أرقام ضحايا عرب ومسلمين وقعوا تحت مقصلة النازية؛ فيما يشبه السباق لإيجاد مكان في طقس القرابين الحديثة، التي يمكن الدفاع عنها بحجة أخلاقية تُنافس على ريع تقديسي للضحية صالح للاستثمار السياسي.

في هذا السياق، أوجدت هذه الخطابات لعبة ثنائيات تمويهية تتسرب من خلالها تصورات قديمة وايديولوجيات لا تقل خطورة عن النازية أو الاحتلال الإسرائيلي. يجابهنا من يريد وضع الهولوكوست في الهامش بمركزية تصوراته عن الفرق بين اليهود والصهيونية على سبيل المثال. لهذا الفصل بينهما جدارة التميز بين السياسة والدين، لكنه يبقى سجينا لتصور مغلق حول السياسة في إطار بين الدولة القومية والملة الدينية. أدت هذه العملية إلى مجرد دفاع سمح عن الاختلاف الديني، وصولا إلى حصر الجريمة في مجرم واحد، وهو الدولة النازية. وهو ما اصطلح عليه زيجمونت باومان بالحفلة التنكرية التي تنحصر في الابتهالات الدينية والمواعظ والبحث في الأسباب المرتبطة بـ"الداء الألماني" للهتلرية.

> *"تعود بنا سجالات مماثلة إلى مربّع حاول الكثيرون تجاوزه إلى مربع إنساني، هدفه حصر العنف الذي يمكن لأي أحد أن يكون ضحيته"*

أصبح الخلاف مع "دولة" إسرائيل فقط، انطلاقا من دول تُعرف نفسها كعرب ومسلمين، تعطي فسحة هوياتية لليهود، لكنها في الحقيقة عاجزة عن تحقيق مواطنة بناء على عمق إنساني. لا يمكن لتجريم النازية أن يتجاهل أنّ العطل في التصورات حول الدين والدولة قائم فعلا لدينا، لأننا غير قادرين على إنتاج ما هو أفضل منها. عمليا فقدنا كل صلاحية أخلاقية لتجريم النازية لأن الأساس الأخلاقي الإنساني لم يحقق شروطه في دولنا ومجتمعاتنا الخاصة. يمكن لنا ان نُضيف إلى النقاش الأخلاقي حول أية ضحية كانت عندما ندخل مرحلة السعي الى تحقيق الشروط الحديثة الإنسانية على الأقل، والتي انطلق بعد فشلها في الغرب محاولة إنصاف اليهود كضحايا.

تعود بنا سجالات مماثلة إلى مربّع حاول الكثيرون تجاوزه إلى مربع إنساني، هدفه حصر العنف الذي يمكن لأي أحد أن يكون ضحيته. لعلّ الدرس التاريخي الذي يُسعفنا به الهولوكوست، هو كوننا ضحايا مستقبليون لهيمنة تتخلل حياتنا اليوم. من الأكيد أن الهولوكوست أرجعت اليهود إلى خريطة العالم المسيحي المُعلمن لإيجاد موقع في الإرث اللاهوتي لأوروبا. لكن استغلال الأزمة الأخلاقية لأوروبا أنتج تيارات محافظة بين الدين المسيحي واليهودي، هي اليوم تتصدر المشهد في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص، وتؤثّر بشكل كبير في العلاقات الدولية. تمثل هذه التيارات نتيجة مباشرة للتفاوض الأخلاقي حول موقع اليهود في التراث اللاهوتي للعالم الغربي وكونهم ضحية العالم المسيحي في صيغته الحديثة. وقد ضاع في الأثناء المكسب النضالي اليهودي والمسيحي خلال الحربين لصالح سياسات دولية جديدة. نتيجة لاستغلال الملكية الرمزية لموضع الضحية بين الخطاب الديني والخطاب السياسي للدول الغربية، أضحت الهولوكوست أداة هرسلة تاريخية ضد ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية من قبل إسرائيل، ومن ثمة تحميل كل العالم تبعات ذلك. وهو ما يدعونا، كمعنيين بالقضية الفلسطينية، إلى مراجعة تعاملنا مع الهولوكوست فيما وراء الحصر الأيديولوجي القانوني والسياسي والديني. يؤدي الانسياق وراء الخطابات المذكورة أعلاه إلى إعادة إنتاج صراعات هوياتية وايديولوجية نحن في غنى عنها.

لا تختلف الخطابات الضيقة حول الهولوكست في الفضاء العربي والإسلامي، من حيث النتائج، عن توظيفها في الخطاب السياسي الإسرائيلي. باسم الهولوكست، تستعيد إسرائيل قوميتها اليهودية لفرض "النظام" و"القانون" في "الديمقراطية الوحيدة" في الشرق الأوسط. وهو ما يلتحق بتوظيف رمزية الضحية في خطابات قومية ودينية. من هذا المنظور، تعتبر الخطابات المركّزة على التمييز الديني ردة فعل تُغذي الصلف الإسرائيلي لا غير. وهي في ذلك تتموقع ضمن خريطة الصراع الدولي لتنتج نفس الإشكاليات التي تضر بالقضية الفلسطينية.

تمحور اهتمام زيجمونت باومان بالهولوكوست حول سؤال: ما الذي جعل جريمة مماثلة ممكنة؟ طرح باومان أسئلة صعبة تشملنا بشكل جزئي، فهو يتصدى للحداثة في زمنها الخاص الذي دخلته المجتمعات الغربية، في الوقت الذي تعيش فيه مجتمعاتنا ودولنا آثارا مرتبطة بها. لا يعتبر ذلك تساؤلا عن جدوى هذه الأسئلة بقدر ما هو تساؤل عن مدى استفادتنا منها. طرح باومن تساؤلات عن البيروقراطية والهندسة الاجتماعية إلى جانب أسئلة أخلاقية تواجه الحداثة في ثغراتها. فهو جزء من تيار

نقدي كامل، يساهم في مراجعة الحداثة لتاريخها وتصوراتها.

تقول جينينا باومان، زوجة زيجمونت باومان، بخصوص تواجدهما في إسرائيل لمدة ثلاث سنوات: "كانت إسرائيل دولة تحكمها العصبية القومية، وها نحن للتو فررنا من القومية (البولندية)، ولذا لم نرض أن نتحول من ضحايا دولة قومية إلى من يقترف الجرم ذاته في دولة قومية أخرى"[1]. يمثّل موقفهما دعوة حقيقية إلى مراجعة تصوراتنا وجهودنا في طريق بناء الدول والمجتمع الحديثين في أفقنا الخاص. تجاوز هؤلاء معطى يهوديتهم من أجل محاولة الارتباط بالعمق الإنساني الذي وعدت به الحداثة.

يدفعنا الهولوكست الى التساؤل نفسه عن جدوى الدولة والسلطة والقانون في أفقنا الخاص. أليست بدورها أدوات استباحة وهدر للإنسان، بل هي أضحت تطرده من تاريخها وجغرافيتها؟ ليس أقل الأدلة شأنا سيل أرقام الضحايا من شبابنا في مراكب الحرقة في البحر الأبيض المتوسط. احترق هؤلاء فعلا بيننا دون أن ننتبه إليهم قبل أن يهزّنا خبر غرقهم. يعتبر واقع دولنا ومجتمعاتنا إعلانا رسميا عن موت الإنسان الذي لم ينبثق بعدُ. يلتحق هؤلاء بقصة اللجوء الفلسطيني الذي يعاني في الدول العربية والإسلامية أكثر من معاناته في الدول الغربية. يبدو الإنسان لدينا مجبرا على الهجرة ما لم يجدها داخله، فيسعى للبحث عنها عبر التحرك في العالم. إنّ المهاجر في مراكب الموت والفلسطيني اللاجئ هما ضحية مركبة لمنظومة الدولة القومية في واقعها الملتبس محليا ودوليا.

أدى تعريب الهولوكوست الفلسطيني إلى حصره تدريجيا كمسألة قومية تعني السلطة الفلسطينية وحدها والمعترف بها دوليا كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني. وهو ما يطرح مفارقة بين الحق القانوني وممارسته. تحدّثت الدول العربية طويلا كـ"عرب"، وأيضا كمسلمين، لكنها تعيش قوميتها بشكل مختلف. فهي دول دكتاتورية مختزلة في الزعيم والرئيس والنظام، دون وجود لشعب حقيقي قادر على تعريف نفسه كما هو، بالنظر إلى أن شرط المواطنة الحرة التي تتيح له ذلك معدومة. انتهت الدول سيئة التأسيس في العالم العربي إلى التطبيع مع إسرائيل، دون أن يمنعها كونها عربية عن ذلك. لا يمكن لمنطق الدولة الحديثة، بتوصيفها بالعربية أو الإسلامية، أن يحل هذا المجال المليء بالتناقضات دون مواطنة وديمقراطية حقيقية قادرة على تفكيك "النقطة العمياء" في الكيان القومي؛ تلك النقطة التي تستغلها الايديولوجيات والسياسات لخلق الهويات المتشددة والمتعصبة. نفس تلك النقطة التي اتي انتبه لها باومان في الفضاء الغربي، وساهمت في قمع اليهود وتوزيعهم كـ "لاجئين" بين الدول الغربية، بعد أن تركّزوا أساسا في بولندا، وقبل أن يهاجروا إلى فلسطين.

رغم أن حقّ الفلسطينيين في دولة بديهي قانونيا، إلا أنه ليس متاحا في ظل المنظومة الحالية. على المستوى الدولي، لا يجد قرار المحكمة الدولية حول الجدار العازل صدى شأنه في ذلك شأن جرائم الاحتلال الإسرائيلي. ومحليا، لا سند لهذه القضية في الدول القائمة تحت عنوان العرب والمسلمين. هذان العنوانان عاطفيان فقط، في تحريك المظاهرات لا غير، إلا أنهما غير صالحين للدفاع عن الإنسان الفلسطيني في مستوى أكبر من ذلك.

المصدر: وكالة الأناضول للأنباء

يجد الهولوكست الفلسطيني الدعم من خطاب حقوق الإنسان في بعده الكوني؛ ذاك البعد الذي أرهقته جرائم الدول على مستوى العالم في عهد الإمبراطورية الأمريكية من تيمور الشرقية وكمبوديا وصولا إلى العراق، وأرهقته ديكتاتوريات عربية وإسلامية كلفت الشعوب فواتا تاريخيا أصبحت غير قادرة على الإضافة بسببه في كل المجالات. تبقى مساهمة المنتمين إلى فضائنا الخاص محاولات فردية نضالية تلتحم بريتشل كوري، الأمريكية التي قضت نحبها تحت البلدوزر الإسرائيلي الذي يهدم بيوت الفلسطينيين.

يمثل الهولوكست الفلسطيني التحدي الأخلاقي الراهن للمنظومة الدولية عالميا ومحليا. ولعل من معزّزات الدلالة الأخلاقية للهولوكوست الفلسطيني هو ضرورة التحام كل نضال حقوقي بالإنسان في جميع المجالات. لا ينفصل هذا الهولوكست عن نضالات الحقوق والحريات الفردية والعامة في دولنا ومجتمعاتنا، وعن نضالات الشعوب الأخرى للتحرر من الهيمنة المعولمة لسياسات الاستبداد والتفقير والتهميش. من الضروري أن نسترجع الهولوكست الفلسطيني، كما هو شأن كل ضحية إنسانية أخرى، وجعله مساهمة في خلق عالم قابل للعيش "...بطريقة تحول دون تحول المستقبل إلى مكان موحش لا يرحب بالبشرية"، على حد عبارة باومان.

> "
> لا ينفصل هذا الهولوكست عن نضالات الحقوق والحريات الفردية والعامة في دولنا ومجتمعاتنا، وعن نضالات الشعوب الأخرى للتحرر من الهيمنة المعولمة لسياسات الاستبداد والتفقير والتهميش
> "

[1] من مقدمة كتاب **الحداثة والهولوكست** لزيجمونت باومان، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، 2014.

الجنس في الأساطير الرافدية القديمة

بقلم: **فهمي رمضاني**
أستاذ مبرّز في التاريخ وعضو الهيئة المديرة لجمعية تونس الفتاة
fahmi@tounesaf.org

> *لم يكن الفعل الجنسي متعة فردية ونشاطا شخصيا معزولا بل طقسا يربط الانسان المتناهي بالملكوت اللامتناهي*

تشكل حضارات بلاد ما بين النهرين رافدا حضاريا مهما استفادت منه الإنسانية عبر التاريخ، فقد كان لها إسهامات متنوعة في عدة ميادين، كما تميزت بخصوصيات حضارية جعلتها المهد الأول المؤسس للأنماط الحضارية والإنسانية الراهنة. في هذا الإطار، تعدّ الأسطورة التي احتلت مكانة هامة لدى شعوب الشرق القديم أهم الرموز الذهنية التي كشفت عن نظرة تلك المجتمعات الى العالم وتمثلها للأنظمة الاجتماعية والثقافية، فهي تعتبر على حد تعبير المفكر السوري فراس السواح "نظاما فكريا متكاملا استوعب قلق الإنسان الوجودي وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه ...وهي باختصار مجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان القديم ومغامرة العقل الأولى مع الكون".

في هذا السياق مثّل الجنس من منظور الأساطير الرافدية قاعدة للحضارة وأساس استمرارية البشرية وسر النماء والازدهار والخصب، لذلك أردنا في هذا المقال الاهتمام بهذه المسألة التي تبدو اليوم من الطابوهات المسكوت عنها واللامفكر فيها عكس نظرة الشعوب القديمة التي اعتبرته الحاضنة لكل بذرة من بذور التطوّر الديني والانتقال الحضاري والتقدم الفكري والثقافي.

الآلهة المؤنثة في الأساطير الرافدية

لا يمكن دراسة الخصوصيات الحضارية لحضارات الشرق القديم دون الاهتمام بالأساطير الرافدية التي تعكس التطور الروحي لهذه الشعوب وتمثلاتهم للمشاعر والغرائز والجنس. ولقد أضفى الفكر الأسطوري على طقوس الجنس صفة القداسة حيث تعامل معه لا باعتباره سلوكا للرغبة والنشاط بل كعنصر فاعل في تطوير الحياة وتحقيق التوازن في الطبيعة، لذلك أولت جل الأساطير الرافدية اهتماما كبيرا للألوهة المؤنثة التي احتلّت مكانة متميزة نظرا لتماهيها مع طبيعة وادي الرافدين القائمة على الخصب والنماء والازدهار. و تعتبر عشتار التي تجسّد مركزية الأنثى في الحضارات القديمة أهم الآلهة التي حظيت بمكانة مقدسة في الأساطير السومرية اذ تم اعتبارها آلهة الحب والخصب والحرب ومركز الطاقة الجنسية حيث تقول عن نفسها: "أنا العاهرة الحنون أنا من يدفع الرجل الى المرأة ويدفع المرأة الى الرجل"، وفي نصّ كتب في عهد سلالة بابل الأولى حوالي 1600 ق.م، توصف عشتار بكونها "غنيّة باللذة والابتهاج الجنسي. وبلذّة العشّاق، من ذا الذي يوازي عظمتها؟من؟". وحسب بعض الأساطير، خلقت عشتار من نفسها زوجها واتّحدت به وبقي نشاطها الجنسي الدائم يولد الطاقة التي لاغنى عنها لاستمرار أشكال الحياة وتكاثرها.

وحسب بعض الدراسات التي اعتمدت على ما قام به المؤرخون من حفريات، فإن أقدم اسم لعشتار هو "أشدار" الآلهة الأكادية المقابلة للآلهة السومرية "نيني" سيدة السماء. وقد ورد اسم عشتار في الميثيولوجيا السومرية والبابلية وخاصة في قصص الطوفان وملحمة جلجامش وتظهر عشتار في جل التماثيل امرأة حسنة الوجه ممتلئة الفخذين وقد أمسكت ثدييها بيدها لترضع شعبها وقد امتزجت في شخصيتها الشراسة من ناحية والحب والحنان من ناحية أخرى فهي آلهة الحب والتناسل وهي كذلك آلهة الحرب. لها معابد في جلّ مدن بلاد ما بين النهرين تقريبا مثل آشور وبابل وبلاخ ونينوى وأور وأربيل.

لذلك اعتبرها جل الدارسين مركز الحياة الجنسية والقوة المحركة للكون والدافع الجنسي- في ديناميكيته الذاتية. وترى الباحثة ميادة كيالي التي أنجزت دراسة حول المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين أن عبادة الآلهة الأنثى ترافقت مع بداية استقرار المجتمعات الرافدية واكتشاف الزراعة وتأسيس المدن الأولى فكانت المرأة بذلك الحاضن الأول لكيان الأسرة والمنتج المساهم والمسؤول عن تلك الثورة الكبرى. وقد تمّ الربط بين دورة الخصب والنماء وبين الخصب والولادة عند المرأة لكونها الفاعل الأول في دورة النمو الأمر الذي ساهم في تشكل مجتمع أمومي يرتبط نسبه بالمرأة لا بالرجل.

الطقوس الجنسية

يعتبر الباحث السوري فراس السواح أن الرافديين قد قدّسوا الدافع الجنسي. واعتبروه قبسا إلهيا إذ لم يكن الفعل الجنسي. متعة فردية ونشاطا شخصيا معزولا بل طقسا يربط الانسان المتناهي بالملكوت اللامتناهي "ففي الفعل الجنسي. يتجاوز الإنسان شرطه الزماني والمكاني ليدخل الى العالم الأبدي". ويظهر ذلك من خلال تقديس الرافديين للطقوس الجنسية واعتبارها أصل الحياة وسرّ النماء والازدهار ولعلّ أكبر دليل على ذلك اهتمامهم بالآلهة المؤنثة عشتار حيث كانت تقام لها الأعياد الدينية والاحتفالات والطقوس وهي طقوس تقام في رأس السنة وتحديدا في اليوم الثالث من السنة من السنة الجديدة، حيث يسبقه في اليوم الأول بكاء الإله القتيل (دوموزي أو تموز) وفي اليوم الثاني يعلن الكهنة عن قيامة السيد من بين الأموات بقوة طاقة الإخصاب الكونية الكامنة في الآلهة عشتار واهبة

الإلهة عشتار/إنانا، نقش على مزهرية، متحف اللوفر المصدر: ويكيبيديا

الحياة ومع انبعاث الإله تموز وعودته إلى الحياة، يحتفل الرافديون بعودته من خلال ممارسات الجنس تعبيرا على عودة الخصب والحياة.

ويفتتح هذا العرس بطقوس الزواج المقدس بين الإله تموز الذي يمثله الملك والإلهة عشتار التي تمثّلها كاهنة المعبد، فيمارس في فرش الإلهة عشتار الجنس مع كاهنة معبدها تعبيرا على انبعاث الحياة من جديد وتفاؤلا بالخصب الذي سيكون في النبات والانسان والحيوان.

تقام كذلك طقوس تعبدية أخرى، حيث يتم استقدام فتاة عذراء تجلس على كرسي مرتفع يرمز لعرش الآلهة عشتار وتفتح ساقيها حتى يظهر عضو الأنوثة لديها ليركع أمامها الرجال على ركبهم ويقبلوا عضوها وتكشف كل هذه الطقوس على تقديس الرافديين للآلهة المؤنثة كما يمكننا أن نفهم الدور المحوري للأنثى في الكون فهي طاقة خلاقة تحفّز قوى الكون لتبعث الحياة فيه. لذلك كان الرافديون يقيمون أغلب الطقوس في الربيع الذي كان يرمز لعودة عشتار من عالم الأموات لتعيد الحياة.

يمكننا ذكر كذلك بعض الأعياد التي كانت تتم فيها ممارسة الجنس جماعيا كطقس يعبر عن وسيلة اتصال بالآلهة ولا شك أنّه كان يُنظر إلى الجنس الجماعي كوسيلة لحثّ الطبيعة على إطلاق خيراتها فيها فيهطل المطر وتنبت الارض وتتكاثر الماشية وتخصب أرحام النساء.

عبادة الأعضاء الجنسية

جسّدت أغلب المنحوتات والتماثيل واللقى الأثرية التي وجدها المؤرخون والتي تعود الى ما يزيد عن 6000 عام قبل الميلاد الآلهة المؤنثة التي تميزت بضخامة منطقة الحوض وضخامة الثديين تعبيرا عن الإخصاب والنماء والازدهار.

وقد حظيت الأعضاء الجنسية باهتمام كبير حيث كانت محل تقديس وإجلال اذ كانت الصلوات والتراتيل الدينية تتضمن طقوسا لعبادة المهبل والقضيب وقد كان الناس يتّجهون أكثر لعبادة العضو التناسلي للمرأة (المهبل) باعتباره مصدر الحياة وسر الوجود ويرى بعض الدارسين أن ذلك يرمز لجدلية الموت والحياة فالذكر يمثل السلب والأنثى الإيجاب أي أنّ الذكر يرمز لقوة الموت والأنثى لقوة الحياة. وقد ذكرت الأساطير السومرية عديد الروايات والقصص المتعلقة بذلك ففي إحدى الأساطير يقبض عفاريت العالم السفلي على الإله دموزي وتبذل زوجته الآلهة إنانا التضحيات حتى يعود الى الحياة وفي الرواية البابلية يقع تموز بيد شياطين الجن فيذيقونه الموت لكن زوجته عشتار تنقذه من العالم السفلي ليعود الى عالم الأحياء. تؤكد كل هذه الأساطير على جدلية الموت والحياة بين الأنوثة والذكورة حيث تكون دائما الأنثى واهبة الحياة وسر الوجود البشري.

البغاء المقدس

أثارت ظاهرة البغاء المقدس العديد من النقاشات التي لا تزال محتدمة الى حد اليوم بين الدارسين حيث لم يُفهم الى الآن الرمزية الكامنة وراءها وسر انتشار هذه الظاهرة الغريبة بين كل حضارات الشرق القديم تقريبا ويتمثل هذا الطقس في كون أن كل امرأة في بابل كانت مجبرة على الجلوس مرة واحدة في عمرها في فناء معبد عشتار وتسليم نفسها الى غريب ليمارس الجنس معها.

ويرى البعض أن هذه الممارسات كانت من أجل الإلهة عشتار وهي تعكس تقديس المرأة عن طريق رجل غريب يمثل قوة الإله الخارقة فهو يهبها الإخصاب أما فراس السواح فيرى أنها واحدة من التظاهرات الإيروتيكية الجنسية في العالم القديم وهي تعبير حيّ عن تفجر القدسي في العالم فالبغاء المقدس هو ممارسة الجنس بين أطراف لا يجمعهم رابط شخصي ولا تحركهم دوافع محددة تتعلق بالتوق الفردي لشخص بعينه أو تتعلق بالإنجاب وتكوين أسرة بل هو ممارسة جنسية مكرّسة لمنبع الطاقة الكونية لكن مع تطوّر الحضارة فيما بعد وبداية بروز البوادر الأولى للمجتمعات الذكورية سيتحول البغاء المقدس إلى واجب على الكاهنات فقط.

يمكننا أن نفهم بعض ملامح نظرة الإنسان القديم إلى الجنس حيث اعتبره فعلا مقدسا وأساس الحضارة وسر الازدهار والنماء وهي نظرة تعكس المكانة الهامة للمرأة التي اعتبرت عنصرا أساسيا في استقرار الإنسان ونشأة العمران وقيام الحضارة وذلك عكس ما نجده لدى العديد من المجتمعات المعاصرة التي تكون فيها للمرأة مكانة دونية.

ولا شك أن ذلك يجعلنا نعيد النظر في العديد من الإشكاليات الراهنة من خلال إعادة دراسة الأساطير ومقارنتها مع نصوص الأديان التوحيدية في سبيل فهم أوسع وأعمق لمراحل تطور الوعي الانساني حتى ندرك أن الإنسانية ربّما تعيش اليوم ردة حقيقية أو نوع من الارتكاس الى الوراء يكشف عن مدى تخلفنا مقارنة بأسلافنا القدامى وذلك في ظل تمسكنا بأهداب الجهل المقدس.

> *"مع تطوّر الحضارة فيما بعد وبداية بروز البوادر الأولى للمجتمعات الذكورية سيتحول البغاء المقدس إلى واجب على الكاهنات فقط"*

أهم المراجع

- فراس السواح، **لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة**، دمشق، دار علاء الدين، 1985.
- محمد بن زكري، "رمزية الجنس في أساطير ديانات الخصب"، **الحوار المتمدن**، 4-4-2018.
- ميادة كيالي، **المرأة والألوهة المؤنثة في حضارات وادي الرافدين**، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي/مؤمنون بلا حدود للدارسات والأبحاث،2017.
- ناجح معموري، **الجنس في الأسطورة السومرية**، بغداد، دار المدى،2017.

المقاومة القبلية لانتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية

بقلم: **هشام الزعبي**
أستاذ مبرّز في التاريخ
hichem@tounesaf.org

> *تميل المدرسة الانقسامية إلى حصر التحركات القبلية ضمن الحدود الضيقة لمصالح المجموعة القبلية وهو ما لا ينطبق حسب رأينا على مقاومة القبائل التونسية لتركيز الحماية الفرنسية.*

على الرغم من الثقل العددي للقبائل بالبلاد التونسية في ظل الاحتلال الفرنسي. (حوالي 85 بالمائة من سكّان البلاد) فإن الدراسات التاريخية لم تركز بما فيه الكفاية على موقف هذه القبائل من الاحتلال الفرنسي. وخاصة الخلفية التي حركت المقاومة القبلية ضد انتصاب الحماية الفرنسية.

استكشاف الاستعمار الفرنسي للقبائل بالوسط والجنوب التونسي

تراوحت الحملات الاستكشافية الفرنسية بتونس قبل الاحتلال بين المقصد العلمي والنية الاستعمارية.

وفي هذا الإطار يمكن ذكر ما قام بإنجازه الضابط بيليسياي الذي كتب العديد من التقارير سنة 1847 جمعت في كتاب تحت عنوان: وصف الإيالة التونسية.

إضافة إلى ما أنجزه المستكشف تيسو عند مرافقته لمحلة الجريد بقيادة باي الأمحال سنة 1857 أي عند ثورة غومة المحمودي وربما هذا ما يفسر.إشارة تيسو إلى أن العديد من المناطق تساند التدخل الفرنسي.

وعند الالتحام المباشر بالقبائل في الوسط والجنوب أصدرت السلط الاستعمارية في 13 أكتوبر 1883 أمرا يقضي بإجراء بحوث معمقة ومكثفة حول جلّ القبائل التونسية كي لا يتكرر الجهل بالقدرات البشرية والعسكرية لهذه القبائل.

المواجهات العسكرية بين فرسان القبائل وماكينة الاحتلال

على الرغم من الحملات الاستكشافية والبحوث التي تم إجراؤها حول قبائل الوسط والجنوب بالبلاد التونسية، فإن قائد جيش الاحتلال الفرنسي فورجمول دي بوستكينار تصوّر أن عملية الاحتلال ستكون "نزهة عسكرية". وهو ما لم تثبته الأحداث إذ سرعان ما اندلعت المقاومة حال دخول الاستعمار البلاد في 24 أفريل 1881 من جهة تبسة الجزائرية.

وتميزت قبيلة جلاص على وجه الخصوص بدورها في إدارة المقاومة بالوسط التونسي. بقيادة علي بن عمارة الجلاصي. ومن أهم المعارك التي جمعت بين هذه القبيلة والجيش الاستعماري معركة برج حفيظ بين 26 و28 أوت 1881 قرب الحمامات، قد أشار إليها الضابط سيمون في تقريره المفصّل حول قبيلة جلاص.

وتميزت كذلك قبيلة الهمامة (في جهة قفصة بالأساس) بأهمية دورها في مقاومة انتصاب الحماية وأصبح قائدها علي بن ضو الهمامي ألد أعداء فرنسا بتونس منذ سنة 1882. ومن أبرز المعارك التي شاركت فيها هذه القبيلة معركة كدية الحلفاء في 25 أكتوبر 1881 والتي سقط فيها عدد من الجنود الفرنسيون قدرهم المؤرخ الفرنسي" بروش" بعشرين جنديا.

وعموما فلقد شاركت أغلب القبائل التونسية في المقاومة ضد انتصاب الحماية الفرنسية واحتدم الصراع بين كلا الطرفين طيلة سبعة أشهر خسرت فيها فرنسا ما يفوق الـ 782 جنديا.

خلفية المقاومة بين العامل القبلي، الديني والوطني

تميل المدرسة الانقسامية إلى حصر التحركات القبلية ضمن الحدود الضيقة لمصالح المجموعة القبلية وهو ما لا ينطبق حسب رأينا على مقاومة القبائل التونسية لتركيز الحماية الفرنسية.

فما نلاحظه هو اتحاد القبائل المتناحرة سابقا (قبائل مخزنية موالية وقبائل غير مخزنية) في سبيل تنسيق جهود المقاومة وهو ما يؤكد تشكل وعي وطني لديهم، فعلى سبيل المثال، قُتل قائد جلاص علي بن عمارة الجلاصي في معركة القلعة الصغيرة (21 أكتوبر 1881) بعيدا عن الحدود التقليدية لقبيلته.

كذلك خاضت قبيلة الهمامة معركة سيدي المرغني (23 أكتوبر 1881) في موطن قبيلة ماجر (القصرين) بالتحالف مع غيرها من القبائل مثل جلاص والفراشيش.

وينضاف إلى البعد الوطني بعد آخر لا يقل عنه أهمية بل ويتمازج معه وهو البعد الديني الذي مثل عاملا أساسيا في تجاوز الانتماء القبلي. فقد وقع النظر إلى المستعمر الفرنسي كعدوّ في الدين تجب محاربته.

في ختام القول، يمكن أن نعتبر أن مقاومة القبائل بالأرياف للحضور الاستعماري ساهمت إلى حد كبير في رسم معالم الهوية التونسية والتأصيل لانتماء واحد يجمع شتات الكيانات الاجتماعية والسياسية المختلفة.

"قيلولات الجدّ"... في كسر الصمت حول أكبر المحرّمات

نتوهّم في تونس أنّنا حطّمنا جميع الحواجز بعد 2011 وأصبح الكلام في كلّ شيء متاحا. ونتبجّح أحيانا بكون حريّة التعبير هي المكسب الأساسي (أو الوحيد) للثورة بل ولعلّنا صرنا أحيانا نرى من الضروري وضع حدود لها.

لكنّ ذلك غير دقيق، في أحسن الأحوال. لئن كُسرت سطوة السياسي وأصبح الشأن العام مدار حديث الكافة، فلا يزال هناك من المحرّمات ما يمليه المجتمع بعاداته وتقاليده وثقافته، وهي ربّما أثقل وطأة. فالسلطة التي تسهر على هذه المحرّمات ليست مؤسسة بعينها، بل هي مبثوثة في كلّ فرد فينا.

يأتي كتاب منية بن جميع المعنون "قيلولات الجدّ" (العنوان الأصلي بالفرنسية: Les siestes du grand-père) الصادر عن دار سراس للنشر سنة 2021 في 102 صفحة ليهتك حجاب الصمت عن المحرّم الأكبر لدى كلّ الثقافات تقريبا، وهو زنا المحارم. لعلّ العبارة العربية أشدّ وصما، في مدلولها الأخلاقي الّذي لا يفرّق بين معتد ومعتدى عليه، من نظيراتها في لغات أخرى. ويضحي الجرم مضاعفا عندما يتعلّق الأمر بجدّ في عقده السابع يعتدي على حفيدته التي لم تكد تتجاوز عقدها الأوّل.

تضع الكاتبة، منذ التوطئة، إصبعها على موطن الداء: "الضحيّة مذنبة أو كاذبة لأنّ المعتدين، في أغلب الأحوال إن لم نقل كلّها، هم أشخاص فوق كلّ شبهة". الجدّ شخص وقور وجيه مشهود له بالتقى والتديّن. لم يكن ليمرّ بذهن أحد أنّ بمقدوره أن يفعل مثل ذلك مع طفلة من نسله. "كان هو، الله على الأرض، وإنّه لشرف أن يحبّك الله". وقد وفّرت له مكانته تلك حصانة كاملة وألقت كلّ العبء على الضحيّة وحدها.

استبطان هذا الذنب هو ما جعل نادرة، بطلة النصّ، تنزع نحو النكران. ولعلّ أعمق ما في النصّ هو ذلك الوصف الّذي تقدّمه الكاتبة

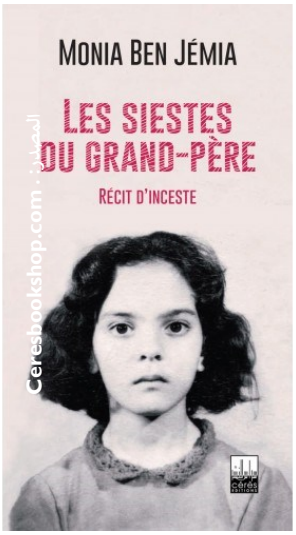

لهذه الآلية. ظنّت الطفلة أنّ ما وقع لها لا يعدو أن يكون من الهلوسات، إذ لا يُعقل أن يصدر فعل شائن كذلك عن شخص مُنزّه. كانت إثر كلّ اعتداء تستأنف حياتها وكأنّ شيئا لم يقع، وكأنّها تنفصل عن ذاتها. غير أنّها لم تلبث أن ناءت تحت حملها الثقيل. بدأت بالهروب من المنزل وبالإقبال على شتّى أنواع المسكّنات عساها تخمد كلّ ذكرى. حاولت الانتحار أكثر من مرّة. لعلّ التمظهر الأكثر حدّة لهذه المشاعر المقموعة كان في ذلك الانهيار المفاجئ الّذي أصابها وهي تقدّم عملا لها أثناء دراستها بفرنسا.

رغم كلّ هذه التعبيرات، لم يخطر ببال أحد من المحيطين بنادرة أن يغوص في الأسباب الّتي كانت وراء ذلك. كان ذلك التواطؤ الضمني هو ما زاد الضحيّة غرقا. شكّت نادرة في أنّ أمّها قد تكون علمت بما حصل، وأنّها قد واجهت الجدّ بذلك فكفّ عن ملاحقتها. ولكنّ وفاة الأمّ، دون أن تصرّح بشيء، زاد نادرة عذابا على عذابا. لعلّها فقط كان تتمنّى أن تكون أمّها فعلت ذلك حتّى تجد في مساندتها إيّاها شيئا من السلوى. لم يقتصر التواطؤ على أفراد العائلة. حتّى الأطبّاء والأخصائيون النفسيون، والمفروض فيهم أن يكونوا أقدر الناس على مواجهة مثل هذه الانحرافات، لم يفعلوا سوى أن زادوا الضحيّة تخديرا.

عرّت منية بن جميع بجرأة هذا المحظور، المنتشر أكثر ممّا قد يُتصوّر، ويبدو أنّ الصمت الذي يطوّقه يجد طريقه إلى الكسر شيئا فشيئا مثلما تكشف عنه الشهادات الصادرة ضمن حركة #أنا_زادة. بفرنسيتها الأنيقة، تكثّف الكاتبة تجربة موغلة في الشخصيّة لتهمس في آذان كلّ الضحايا أن قد ولّى زمن الصمت. على أنّه ربّما كان من الممكن أن يكون النصّ أمعن أثرا لو وقع الاشتغال أكثر على معالجته الأسلوبية. نجد فيه، خصوصا في فصوله الأولى، عناصر روائية بارزة منها ذلك التقديم الطريف لشخصيّات مثل الأب وبابا محمود وذلك السرد المفصّل لبعض ذكريات الطفولة. غير أنّ هذه العناصر لا تلبث أن تضمحلّ كلّما تقدّمنا نحو النهاية لنجد تركيزا أكبر على الدفاع عن القضيّة ذاتها بحجج علميّة، وبذكر مراجع موثّقة. كما أنّه رغم أنّ كلّ النصّ يعبق بريح السيرة الذاتية، فإنّ الكاتبة تضع إشارات تجعل الأمر يلتبس على القارئ، إذ تنبّه منذ البداية إلى كون كلّ تشابه مع الأحداث أو الأماكن أو الأشخاص هو محض صدفة. وهي تروي كلّ القصّة على لسان نادرة، لكنّنا نجد في الفصل المعنون "لم ير أحد شيئا" انتقالا فجئيا إلى الحديث بضمير المتكلّم، قبل العودة إلى ضمير الغائب في الفصل الموالي. لو وقع الحسم بشكل واضح لصالح السيرة الذاتية، أخال أنّ الهوية الأدبية للنصّ ستكون أشدّ رسوخا ممّا يعزّز مقروئيته ويجعله كذلك أشدّ حضّا للضحايا على البوح بتجارب مماثلة. ربّما يكون هذا التقلّب بين الأجناس من رواسب تلك المقاومة اللاواعية لفعل البوح...

بقلم: **حمزة عمر**
رئيس جمعية تونس الفتاة
hamza@tounesaf.org

> "
> *استبطان هذا الذنب هو ما جعل نادرة، بطلة النصّ، تنزع نحو النكران. ولعلّ أعمق ما في النصّ هو ذلك الوصف الّذي تقدّمه الكاتبة لهذه الآلية*
> "

"تاريخ التكفير في تونس III"... جدل الإيمان والعلم

بقلم: **حمزة عمر**
رئيس جمعية تونس الفتاة
hamza@tounesaf.org

"

هل من الضروري أن يكون الباحث مؤمنا لكي يبحث في مسائل ذات علاقة بالإيمان؟

"

عليّ أن أعترف أنّي لم أكن متحمّسا كثيرا في البداية لمطالعة الجزء الثالث من تاريخ التكفير في تونس لشكري المبخوت والموسوم بـ"التكفير في الجامعة التونسية" (صادر عن دار مسكلياني للنشر، تونس، 2021). فبالاطّلاع على ما كُتب في ظهر الكتاب، كان من الواضح أنّ مضمون الكتاب يقتصر على تكفير المرحوم محمّد الطالبي لزملاء له من الأساتذة الجامعيين، على رأسهم حمّادي الرديسي وعبد المجيد الشرفي، وقد أحدث كتابه "ليطمئنّ قلبي" عند صدوره سنة 2007 ضجّة إعلامية في هذا الإطار.

كنت اطّلعت على "ليطمئنّ قلبي" فور صدوره، وكنت لا أزال طالبا. أذكر أنّ ذلك الكتاب أربكني. كنت وقتها مولعا بمسألة تجديد الفكر الديني واهتممت شديد الاهتمام بكتاب "الإسلام والحداثة" لعبد المجيد الشرفي. كنت أحسب أنّ الشرفي والطالبي (وكنت قد قرأت له "عيال الله" و"أمّة الوسط") ينتميان إلى نفس المدرسة الفكرية ذات المقاربة السياقية التاريخية، فإذا بي أفاجأ أنّ الطالبي يتّهم الشرفي بالانسلاخ عن الإسلام! لم أجد لذلك سببا، لا سيّما مع الضعف المنهجي الواضح لـ"ليطمئنّ قلبي"، فاكتفيت بالقول: شيخ ناهز التسعين نكص عن منهجه العلمي ليوزّع التهم يمينا ويسارا... لنطو عن ذلك كشحا ولا نذكر عنه سوى ماضيه الأكاديمي المشرق. لم أظنّ أنّ مسألة الطالبي تستحقّ أكثر من ذلك.

يذهب شكري المبخوت إلى ما هو أعمق بكثير من هذه المقاربة البسيطة. منذ المقدّمة، يحاول الكاتب، انطلاقا من مناقشة أطروحة المرحوم عبد الله صولة حول الحجاج في القرآن سنة 1997، أن يجد سوابق لمحاسبة نوايا الباحثين في الوسط الأكاديمي التونسي. يعرض المبخوت لتطوّر فكر الطالبي، إذ رغم أنّه عُرف في أوائل التسعينات بتبنيه لنظرة مقاصدية يسميها القراءة السهميّة، كما نراها خصوصا في كتاب عيال الله (وشكري المبخوت كان أحد مُحاوِرَيه لإنجاز هذا الكتاب)، تعترضنا إشارات إلى الجذور التي نجدها في كتاباته منذ نهاية السبعينات للرؤية التآمرية للإسلام، رغم ما أشار إليه الكاتب من صمت الطالبي على جرأة بورقيبة في مقاربة المسائل الدينية، وهي إشارة لا تخلو من تعسّف على الطالبي، خصوصا مع الانطباع الذي يقدّمه الكاتب حول توسيم الطالبي من قبل بورقيبة، إذ تستبطن اتّهاما للطالبي بالمهادنة والتقيّة، في حين أنّه يمكن القول أنّ موقفه تطوّر تدريجيا، إذ نجد أنّ الطالبي قدّم موقفا إيجابيا من بورقيبة في بداية التسعينات قبل أن ينقلب فيما بعد إلى تكفيره. في الفصلين الثاني والثالث، يتمّ التطرّق إلى أكبر قضايا التكفير التي أثارها الطالبي، وهما على التوالي تكفيره لحمّادي الرديسي وعبد المجيد الشرفي. في الفصل الرابع، تُعرض أهمّ التفاعلات على ما حدث من جدل حول كتاب "ليطمئنّ قلبي"، ولعلّ أبرزها ما كتبه احميده النيفر وسامي براهم.

مربط الفرس في تكفير الطالبي لزملائه يكمن في علاقة البحث العلمي بالإيمان. إذا كان الحياد (أو الإلحاد) المنهجي شرطا مسبقا للبحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بما يعنيه من نزع للقداسة عن النصّ الديني حين يكون موضوعا للبحث، فما هو انعكاس ذلك على المؤمنين بهذا النصّ؟ ألا تصبح تلك "اللامبالاة" التي يتعامل بها الباحث مع مسألة القداسة إلى أداة لزعزعة إيمان المؤمنين؟ وإذا ضُربت طمأنينة المؤمن، ألا يُدخلنا البحث العلمي في "عدمية مفزعة" على حدّ تعبير احميده النيفر؟ وهل من الضروري أن يكون الباحث مؤمنا لكي يبحث في مسائل ذات علاقة بالإيمان؟

لعلّ هذه التساؤلات يمكن أن تفسّر تحوّل محمّد الطالبي من موقع المؤرّخ الباحث إلى موقع المؤمن المؤدلج المنافح بعناد، لا يخلو من عامية، عن الإيمان كما يراه. وفي الحقيقة، تقع هذه التساؤلات في قلب مسألة التحديث كما تُطرح في مجتمعاتنا العربية الإسلامية منذ القرن التاسع عشر. ذلك الحدّ الفاصل بين تبنّي الحداثة (الغربية) والتمسّك بالهويّة (في بعدها الديني خصوصا) لا يزال مدار الجدل. ولعلّ ذلك الشعور العميق بضعفنا الحضاري أمام الآخر المتقدّم هو ما يجعلنا سُرعان ما نُستفزّ أمام كلّ ما نراه تحديّا لقناعاتنا الدينية، حتّى إن لم يعدُ أن يكون تطبيقا جادا لمناهج البحث العلمي الحديث.

في هذا الإطار، يُمكن أن نعتبر كتاب شكري المبخوت الأخير دراسة حالة حول هذه العلاقة المتوتّرة بين الهوية والحداثة، وفي هذه الدراسة من الطرافة والجدّة، لا سيّما في اهتمامها بتفاعلات مختلف الكتّاب حول هذا الجدل وتقديمها لعناصر مهمّة في فهم شخصية الطالبي، ما يجعلها تذهب إلى ما وراء التناول الإعلامي السطحي لظاهرة محمّد الطالبي خصوصا

المصدر: صفحة دار سكيلي على فايسبوك

كما رأيناه في عديد القنوات التلفزية بعد الثورة. على أنّ عنوان الكتاب يخاتلنا ويمنّينا بأكثر ممّا فيه، إذ لا نجد فيه خارج مثال الطالبي نماذج حقيقية لحالات تكفير داخل الوسط الأكاديمي التونسي. أخال أنّه كان من الممكن الإشارة مثلا إلى مختلف البيانات التكفيرية التي تبنّاها أساتذة جامعة الزيتونة بعد الثورة، خصوصا ضدّ تقرير لجنة الحقوق الفردية والحريّات. ربمّا يمكن تفسير هذا الإغفال من قبل الكاتب بأحد أمرين: إمّا أن يكون التعرّض إلى مثل هذه البيانات مخطّطا له في الجزء الموالي من "تاريخ التكفير في تونس" الذي سيتعرّض إلى التكفير بعد الثورة، وإمّا أن تكون مناهج جامعة الزيتونة تنتمي إلى عصر سابق على تقاليد البحث العلمي كما وقع إرساؤها داخل الجامعة التونسية.

> "تقع هذه التساؤلات في قلب مسألة التحديث كما تُطرح في مجتمعاتنا العربية الإسلامية منذ القرن التاسع عشر"

جمعية تونس الفتاة
الهاتف: 58528747
البريد الالكتروني: contact@tounesaf.org
الموقع: www.tounesaf.org
فايسبوك: facebook.com/tounesalfatet
تويتر: twitter.com/tounesalfatet
انستغرام: @tounesaf